

أصول النظرية التداولية عند المفسرين سورة مريم أنموذجا

The Origin of the Pragmatic Approach in the Opinion of the Interpreters
-Surat Maryam, a Model-

الدكتور: طيب نسالي

جامعة حسيبة بن بوعلبي بالشلف - الجزائر

ملخص البحث:

كثير من المصادر العربية التراثية قد عالجت مباحث نعدّها الآن من صميم التداولية، وشاركتها اصطلاحات كالمقام والسياق وظروف الخطاب وغيرها، بل في كثير من الأحيان تتجاوز ما تطرحه الدراسات النظرية التداولية الحديثة في الغرب، وهذا ما يتجلّى خاصة عند الأصوليين والمفسرين حينما يحللون الخطاب القرآني، ويبحثون دلالة الألفاظ ويغوصون في معانيها الظاهرة والباطنة، وينظرون في سياقها ومناسباتها.

وهذا البحث الموسوم بـ: "أصول النظرية التداولية عند المفسرين - سورة مريم أنموذجا" يحاول إبراز جذور النظرية التداولية في التراث العربي التفسيري، ويبيّن الأسس اللسانية وغير اللسانية التي استند إليها المفسرون في تحليل الخطاب القرآني وتأويل معانيه الخفية، وذلك من خلال طائفة من آيات سورة مريم واعتمادا على جملة من التفاسير.

الكلمات المفتاحية: التداولية؛ سورة مريم؛ القرن الكريم.

Abstract

Many Arab heritage sources have dealt with topics that we now consider to be from the core of pragmatics, and have shared terms such as denominators, context, conditions of discourse, etc., but more often than what modern theoretical studies of pragmatics offers in the West. This is evident, especially among fundamentalists and interpreters when analyzing the Qur'anic discourse, searching significance of terms, delving into the apparent and hidden meanings, and considering their context.

This research paper tries to highlight the roots of the pragmatic theory in the interpretative Arab heritage, and shows the linguistic and non-linguistic foundations upon which the interpreters relied in the analysis of the Qur'anic discourse and the interpretation of its hidden meanings through a range of verses of Surat Maryam, depending on a number of interpretations.

Key words: Pragmatic approach, Quranic discourse, interpretation, Arab heritage

تمهيد:

قد نخطئ كثيرا حينما نزعّم أن ما توصل إليه علم اللغة الحديث من نظريات ومناهج جديد لم يُسبق إليه، ولو استقرّنا التراث بعيون مبصرة لوجدنا علماء العربية القدامى والأصوليين وهم أهل فصاحة وبيان قد أصلوا لهذه العلوم والفنون أو أشاروا إليها في بطون كتبهم مبثوثة تحت اصطلاحات أخرى، فالتداولية لها جذورها في تراثنا العربي الزاخر، عند علماء البيان والأصوليين والمفسرين، نجد مثلا من مصطلحاتهم مقتضى الحال والمقام والسياق.

يقول الجاحظ: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك ولكل حال من ذلك مقاما حتى يقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات" ونجد الجرجاني وهو ينظر لنظرية النظم يربط القرائن النحوية وعلاقات التأليف بسياق الكلام والموقف، وحال المتكلم والمخاطب وموضوع الخطاب إذ يقول: "ومما يجب ضبطه هنا أيضا: أن الكلام إذا امتنع حمل على ظاهره حتى يدعو إلى تقدير حذف أو إسقاط مذکور، كان على وجهين: أحدهما؛ أن يكون امتناع تركه على ظاهره لأمر يرجع إلى غرض المتكلم، والوجه الثاني؛ أن يكون امتناع ترك الكلام على ظاهره ولزم الحكم بحذف أو زيادة من أجل الكلام نفسه لا من حيث غرض المتكلم به، وذلك مثل أن يكون المحذوف أحد جزأي الجملة.

1- السياق من أهم المرجحات الدلالية:

السياق عند أهل البيان هو كل ما يعين على فهم الحدث اللغوي وإبراز المعنى المقصود سواء كان متصلا بالسامع أو بالمتكلم أو علاقة كل منهما بالآخر، أو بظروف البيئة الزمانية أو المكانية التي وقع فيها الحدث اللغوي، والسياق أصل معتبر عند الأصوليين والمفسرين لفهم الخطاب وفقه مدلولاته الخفية يقول ابن قيم الجوزية: "السياق يرشد إلى تبين الجمل، وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمه غلط في نظره، وغالط في مناظرته فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾¹، كيف تجد سياقه يدل على أنه الدليل الحقيق² لأن السياق أهم قرينة لسانية تبين المعنى، أو تحدده حال الالتباس.

يقول الزركشي: "كل لفظ احتمال معنيين فصاعدا هو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه... فإن كان أحد المعنيين أظهر، وجب الحمل عليه، إلا أن يقوم الدليل على أن المراد هو الخفي، وإن استويا، والاستعمال فيهما حقيقة، لكن في أحدهما حقيقة لغوية أو عرفية وفي الآخر شرعية، فالحمل على الشرعية أولى، إلا أن يدل دليل على إرادة اللغوية... فإن تنافى اجتماعهما ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد كقرء للحيض والظهر، اجتهد في المراد منهما بالأمارات الدالة عليه... وإن لم يتنافيا وجب الحمل عليهما عند المحققين، ويكون ذلك أبلغ في الإعجاز والفصاحة، إلا أن دل على إرادة أحدهما"³، ومن هذه الشروط يتسنى للأصوليين معرفة الأفعال الكلامية المنبثقة عن الخبر كالشهادة، والرواية، وانتقال الشهادة من الخبرية إلى الإنشائية، وكذلك معرفة الأفعال الكلامية المنبثقة عن الإنشاء والتي تبنى عليها أحكام شرعية تعبدية كالأمر والنهي، والكراهة والاستحباب، والإباحة والإذن وغيرها.

روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقالوا: لم يدخل هذا معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم إلا ليريهم، قال "ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾⁴ فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾⁵، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول)⁶.

ومنه نستنتج أن من العلامات المساعدة على فهم قصد المتكلم بالخطاب في حالة الالتباس، أو احتمال اللفظ لأكثر من معنى النظر في سياق الكلام قريبه وبعيده، وهذا الذي يسير عليه معظم المفسرين عندما يتأولون ما خفي معناه أو اشتبه بمعانٍ مرجوحة لوجود قرائن تؤيدها.

2- معرفة أسباب النزول عون على فهم دلالة الخطاب.

إن فهم أسباب النزول سواء لآي القرآن أو لورود الحديث يشكل مدخلا مهما أو منهجا أصيلا للفقهاء والمفسرين لإدراك البيئة الزمانية والمكانية، وفهم الظروف والملابسات التي تحيط بالحكم الشرعي وليس فقط فهم أبعاد النص من جوانبه اللسانية، ولعل فهم العصر لا يتأثر إلا بإدراك السنن والقوانين الاجتماعية والتمكن من آليات الفهم الاجتماعي التي لها علومها ومعارفها⁷ وإذا نظرنا إلى الفوائد من ذكر سبب الآية عند الفقهاء والمفسرين ونظرنا لهذه الأهداف من زاوية تداولية، ندرك مدى الوعي عند أسلافنا بالظروف والأحوال المحيطة بالنص أو الخطاب ومدى تأثيرها في توجيه النص وجهة صحيحة.

3- العلوم التي يحتاجها مفسر القرآن الكريم:

أوجب العلماء على من أراد اشتغال على العلم الجليل التمكن من جملة علوم ولاسيما علوم العربية، لأن المفسر مبلغ عن الله سبحانه وتعالى، ويقتضي عن هذا البلاغ أحكام فقهية وتعبدية، وقد عدّها السيوطي خمسة عشر علماً، وذكر منها علم اللغة، والنحو، والتصريف، والاشتقاق، والبلاغة بفنونها الثلاث، وعلم القراءات، والفقهاء وأصوله، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، والأحاديث المبيّنة للمجمل والمبهم، وختمها بعلم الموهبة، وزاد الشيخ رشيد رضا علم أحوال البشر (الأنثروبولوجيا)، والسيرة النبوية⁸، ولعلنا نلاحظ أن السياق والمقام وحال المخاطب لم تغب عن جملة هذه العلوم، والتي تنضوي تحت أسباب النزول وعلم الموهبة وعلم أحوال البشر والسيرة النبوية باعتبارها قرائن مهمة مرتبطة بالخطاب القرآني والظروف التي نزل فيها والقوم الذين قيل فيهم.

4- أسباب اختلاف المفسرين في تأويل الخطاب القرآني:

أنتجت الحركة العلمية التي أعقبت عصر التدوين ثراءً معرفياً في مختلف مناحي العلوم، خاصة بعد اتساع الرقعة الجغرافية للبلاد الإسلامية وانفتاحها على الأمم الأخرى وثقافتها "فتعددت مناهل التفسير، ومصادره وتنوعت طرقه ومناهجه... فمنهم من ظلّ على مصادره الأصلية، ومنهم من غلب تحكيم العقل المجرد في تفسيره، ومنهم من اصطبغ تفسيره بالعلم الذي برز فيه، فالنحوي غلب النحو على تفسيره، والفقهاء غلب الفقه على تفسيره فتوسّع في أصوله وفروعه، والمؤرّخ غلب على تفسيره سرد القصص واستفادها، والفيلسوف ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبّههم والرّد عليهم"⁹، ولعلنا نجمل أسباب اختلاف المفسرين في النقاط الآتية:

4-1) أسباب تتعلق بالمفسر:

- اختلاف الزمان والمكان : فبإمكان المتأخر زماناً أن يستدرك على سابقه أموراً كان للزمان في تجليها شأن، وربما حاز قصب السبق من ظفر بيئة زمانية ومكانية مناسبة .
- اتساع الرقعة الجغرافية للعالم الإسلامي: واختلاط الأجناس وما ينتج عنه من اختلاف في العادات والتقاليد والمفاهيم، وربما تختلف حتى الحاجات والضرورات باختلاف الأزمنة والأمكنة.
- أثر المذهب السائد والمرجعية الفكرية والثقافية .
- طبيعة الحقبة التاريخية والفترة السياسية السائدة.

4-2) أسباب تتعلق بالتفسير: ويمكن إجمالها فيما يلي:¹⁰

- أن يكون في الآية أكثر من قراءة.
- الاختلاف في وجوه الإعراب .
- احتمال اللفظ لأكثر من معنى .
- احتمال الإطلاق والتقييد.
- احتمال العموم والخصوص.
- احتمال الحقيقة والجماز.
- احتمال الإظهار والإضمار.
- احتمال النسخ والإحكام.
- الاختلاف في رواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرجته من حيث الصحة والضعف.

5- تفسير جملة من آيات سورة مريم من منظور تداولي:

5-1) نسب مريم عليها السلام:

جاء الترتيب الذكري لقصة زكريا قبل قصة مريم في هذه السورة لحكمة بيانية عظيمة مفادها تهيئة ذهن السامع لتلقي واستيعاب ما هو أبلغ وأعظم في عرف الناس من معجزة إنجاب ولد من امرأة عاقر وشيخ كبير، فكانت هذه بمثابة تمهيد لمعجزة ميلاد ولد من غير أب أصلاً في قصة مريم العذراء عليها السلام.

يستند المفسرون أحياناً إلى أخبار التاريخ كروافد استكشافية ترافق الحدث، تحيلهم على تفهّم النص القرآني، يذكرون من نسب مريم عليها السلام أنها ابنة عمران إمام الربانيين والكاهن الأكبر في بيت المقدس، كما كان زكريا عليه السلام من كبار هؤلاء الربانيين، وهو زوج أخت زوجة عمران، أي زوج خالة مريم عليها السلام، كانت زوجة عمران من العابدات وكانت عاقراً كما هو حال أختها (زوجة زكريا)، فدعت الله أن يهبها ولداً بعد أن لبثت عمراً طويلاً مع زوجها دون ذرية¹¹.

فاستجاب الله دعائها، فلما حملت به نذرت أن تهبه لخدمة بيت المقدس، وكانت ترجوه ذكراً قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾¹²، ووفاءً بنذرهما قدمتها لبيت المقدس، فتنافس العباد والربانيون في كفالتها، ثم التجؤوا إلى القرعة فكانت كفالتها من نصيب زكريا عليه، نشأت مريم عليها السلام نشأة طهر وعفاف وعبادة لله مترقية في درجات الإحسان، وبينما هي في خلوتها في المكان الذي اعتزلت فيه الناس تمثل لها جبريل عليه السلام في صورة بشر، ليبشرها بعيسى عليه السلام بمعجزة من الله، كرامة لها ورحمة بها وآية للناس¹³.

5-2) تبشير مريم عليها السلام:

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا {16}﴾ الخطاب موجّه إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم وإلى أمته أي: اذكر قصة مريم وخبرها واتعظ بما جاء فيه، ترى أن "الصورة القرآنية تنقل الأحداث الواقعة وقت نزول القرآن الكريم بكل تفصيلاتها تصويراً حياً فيه اللمسات الفنية والنفسية والتوجيهية لأن القرآن الكريم جاء لبناء واقع جديد وفق تصور إسلامي"¹⁴ يحكم حياة الناس ويوجهها لما فيه سعادتهم قيام شؤونهم.

الانتباز: على وزن افتعال يعني الانفراد والانعزال، وفيه معنى المطاوعة، والنتبذ الإبعاد والطرح، جاء في لسان العرب: "انتبذ فلان: أي ذهب في ناحية وانتبذ عن قومه تنحى عنهم"¹⁵، أي أنها اعتزلت منهم (من أهلها) ما يشغلها عن عبادة ربّها بلباقة وحسن تصرف، وليس اعتزلتهم بجرهم كلياً، فانظر إلى حسن موقع (من) في النظم.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾: احتجبت عن الناس لكمال عفتها، ﴿فَارْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا {17}﴾، الروح: جبريل عليه السلام وإضافته إلى ضمير الجلالة مُشعّر بتشريفه وتكرمه.

تمثّل: (تفعل) أي تكلف المماثلة بالبشر حتى صار في صورة بشر سوي، لأنه لا يقدر أحد على رؤية الملك في صورته الحقيقية، فرمما صعقت برؤيته، وقد يكون في هذا ابتلاء وامتحان لعفتها إذ هي في خلوة برجل حسن الحلقة بعيداً عن أعين

الناس، بيد أنّها رَدّت لعقّتها للتوّ: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا {18}﴾ بتأكيد الاستعاذة والالتجاء إلى الرحمن، وإنما اختارت اسم الرحمن لأنها في موطن يستدعي رحمة الله لدفع الأذى عنها، وفيه تذكير له بالموعظة ليتقي الله (إن كنت تقيا) "ومجيء هذا التذكير بصيغة الشرط المؤذن بالشك في تقواه قصد لتسهيل خشيته"¹⁶، وهذا أبلغ من الوعظ والتذكير المباشر.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا {19}﴾: قصر إضافي على صفة المرسولية، أي ما أنا إلا مرسل من ربك، وإضافة كلمة (رب) إليها ليشعرها أن الأمر ليس إليه وإنما هو قضاء ربه الذي تتعبد له، وفي هذا إيناس لها، وتهدئته لروعها حتى يتيسر لها تقبل هذه الهبة الآتية من الطريق الأغرّب والأعجب.

3-5) ردّ فعل مريم عليها السلام من البشري:

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا {20}﴾ وكأنها أرادت أن تراجع الملك في هذا الأمر الذي لم تطفه، فقدّمت بين يديها أعذارا بطريق الاستغراب والتعجب.

(لم يمسنني بشر) كناية عن النكاح الشرعي كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾¹⁷.

(ولم أك بغيا) عن طريق الفاحشة، والحذف في (أك) دلالة على أنها حتى نفسها لم توهمها باقتراف الفاحشة ولو من وجه بعيد، فهي العفيفة الطاهرة، "وليس كلام مريم مسوقا مساق الاستبعاد مثل قول زكريا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا {8}﴾"¹⁸، لاختلاف الحالتين لأن حال زكريا حال راغب في حصول الولد، وحال مريم حال متشائم منه متبرئ من حصوله"¹⁹ لما ستلقاه من تبعات.

﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾ تقرير لكلامها، ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا {21}﴾ عدول عن جواها بشأن المراجعة إلى بيان هون خلق ولد من غير أب في جانب القدرة الإلهية على طريقة أسلوب الحكيم، وفيه إشعار بأن تبعات هذا الأمر الخارق للعادة قد تكفل به الله سبحانه فلتطمئن.

والبيان القرآني فيه أيضا إلتفات من الغيبة (قال ربك) إلى التكلّم (ولنجعله) ومن الأفراد إلى الجمع للدلالة على لازمة من لوازم الربوبية في بيان ما لا يقدر عليه ولا يختصّ به إلا الله. وقوله (منّا): بيان مصدرية هذه الرحمة العظيمة والمنّة الجليلة.

(وكان أمرا مقضيا)، القضاء هو الحكم والفرض والقدر، واتصافه بفعل (كان) دلالة على أن هذا الحكم ثابت أزلا لا يتبدّل ولا يتغيّر، فما عليها إلا التسليم وترك أمر المراجعة.

وآثر النظم القرآني الجملة الاسمية (هو عليّ هين) لثبوت ولزوم هون فعل الخلق عليه أبدا، بينما آثر الجملة الفعلية (ولنجعله آية للناس) للدلالة على أنه تعالى أنشأه ليكون آية ورحمة خاصة²⁰ بني إسرائيل في ذلك الزمان ولا يمنع منه تجدد النفع العائد منهما كلّما تجدد ذكر قصة والاتعاظ بها لأن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والجملة الفعلية تفيد الحدوث والتجدد.

وقضاؤه سبحانه وتعالى إنما يكون لحكمة بالغة ورحمة شاملة، وفي هذا درس لنا بأن الأسباب وحدها لا تكفي لحصول شيء ما لم يأذن به الله، وتخلّفها لا يمنع من حصول أمر قدره الله، فلا تتوكّل على الأسباب فتقع في شرك الأسباب ولكن توكّل على مسبب الأسباب وابتغ إليه الوسيلة.

4-5) رحمة الله بأصفيائه في ساعة العسرة:

قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا {22}﴾ الفاء للترتيب والفورية، والباء للمصاحبة والملازمة، والقصي المكان البعيد، فكأنها لشدة حياها ابتعدت به مسرعة إلى أقصى مكان مخافة أعين الناس، ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا {23}﴾ أي ألقاها واضطرها ألم المخاض إلى الاستناد على جذع النخلة، وذكر الجذع هنا جاء دلالة على فعل الاستناد المستنتج بقرينة عقلية.

نسي: "مصدر أريد به اسم المفعول بمعنى الشيء التافه الحقير الذي شأنه أن ينسى"²¹، ووصف النسي بالمنسي مبالغة منها في تمّي نسيان ذكرها لما تعلمه من اتهام أهلها لها وقذف براءتها مهما أصدقتهم القول لاستحالة حصول الولد من غير أب في العادة.

قال تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا {24} وَهَزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا {25}﴾ المنادي يُحتمل أن يكون الملك ويحتمل أن يكون المولود، وعلى الاحتمال الثاني تكون دلالة (من تحتها) التعجيل بطمأننتها قبل أن ترفعه.

السري: جدول من الماء الجاري.

(قد جعل ربك تحته سريا) خبر مراد به التعليل لجملة (ألا تحزني) أي أن حالتك حالة جديرة بالمسرة دون الحزن، وجاء الخبر مؤكداً بقْد لإفادة تحقيق الموعود به والتأكيد على تمام العناية الإلهية بما.

تساقط: على وزن تُفاعل للمبالغة في تتابع وتكرّر السقوط.

الرتب: أجود التمر يكون غضاً طرياً لم يتم جفافه.

الجنّي: المحتنى من ساعته "وأكثر ما يستعمل الجنّي فيما كان غضاً"²².

أراد الله سبحانه أن يخفف عنها ويدفع همومها وأحزانها بألطف العبارات وأندى الكلمات فاختر منها ما احتوت على رقة ولين ونعومة ليسلي قلبها ويخفف من محنتها، ولا شك أن جذع النخلة لا يقدر على هزّ العصبة أولو القوة من الرجال فكيف بامرأة حال ضعفها؟ إنها رحمة الله النافذة وكرامته بأوليائه في ساعة العسرة لقوله عليه السلام: (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)²³.

﴿فَكُلِّي وَاشْرِبِي عَيْنًا فِيمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا {26}﴾ يقال لغة: "قرت عين فلان إذا بردت، وقد استعير هذا التعبير كناية عن السرور والرضا"²⁴، وتشمل قرّة العين رغد العيش والأنس بالمولود والطمأنينة على مستقبل أمرها.

المراد بالصوم الإمساك عن الكلام الذي كان متعبداً به في شرائع من قبلنا.

فقولي: إجماع بالإشارة كما سيأتي في قوله: (فأشارت إليه).

إنسي: نسبة إلى الإنس اسم جمع إنسان مأخوذ من الأنس التي تزول به الوحشة، أما "بشر" فدل على الجانب الخَلقي للإنسان من البشارة: أي الهيئة.

(لن أكلم اليوم إنسيا): فيه احتراز عن تكليم الملائكة.

﴿فَأْتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا {27} يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْيًا {28}﴾ تحمله حال من (أتى) وكأنها أتت مجاهرة به واثقة بنصرة ربها في ذلك الموقف الحرج، لما رآته من كرامات بعد أن كانت سلفًا تمنى الموت.

الفري: أصله من فرى الجلد إذا قطعه على وجه الإصلاح أو الإفساد، "وفرى فلان كذبًا إذا خلقه وافتراه... وفلان يفري الفري: إذا كان يأتي بالعجب فيعمله"²⁵، والمعنى أنكِ جئتِ شيئًا عظيمًا عجيبًا، "وعبر عنه بالشيء تحقيقًا للاستغراب"²⁶، وبالجمي دون الإتيان لأن الجمي في الغالب يكون للشيء الصعب الذي يتطلب مشقة أو زمنًا لحصوله لذا جاء التعبير (فأتت به... لقد جئت) أي أتت به للتو دون تمهل إلى قومها، بينما هم استعظموا الأمر واستشنعوه فقالوا: (لقد جئت...).

والمناداة بنسبتها إلى هارون (الرجل الصالح) زيادة في توبيخها وتأييدها أي ليس حريًا بهارون أن تكون له أختٌ تفعلُ فِعْلَتَكَ، وفي تنزيه أبويها عن السوء والفحشاء والثناء عليهم كناية عن ذمها وعتابها، وممكن عَجَبَهُمْ: كيف لامرأة من بيت شرف وصلاح، وكُنَّا نَعُدُّهَا من القانتين العابدين أن تقترف مثل هذا السوء؟
5-5) انتصار الحق:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا {29}﴾ أحالتهم على سؤال ولدها بلغة الإشارة لأنها مازالت في نذر الصوم، قالوا: (كيف نكلم؟): استفهام إنكاري من تكليم من ليس في سنّ التكليم أصلاً.
عَبَّرَ ب(كان) "لإيقاع مضمون الجملة في زمن ماض مبهم يصلح لقريبه وبعيده، وهو هاهنا لقريبه خاصة، والدال عليه مبنى الكلام وأنه مسوق للتعجب، ووجه آخر أن يكون (نكلم) حكاية حال ماضية أي: كيف عهد قبل عيسى أن يُكَلِّمَ الناسُ صبيًا في المهدي فيما سلف من الزمان حتى نكلم هذا"²⁷، والعدول من الماضي (قالوا) إلى الحاضر (نكلم) لإفادة نقل صورة الماضي إلى الحاضر واستمرار الحدث.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا {30}﴾ (إني عبد الله): جملة مؤكدة بمؤكدين تأكيداً على عبوديته لله، والداعي البلاغي لهذا التأكيد دحض التوهّمات عن جهال القوم من أن ينسبوه إلى الله أو يؤهّوه وقد فعلوا كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾²⁸.

وفي الجملة كذلك تحقيق لمعاني التوحيد وتقرير للعقيدة الصحيحة المنصوص عليها في جميع الشرائع السماوية، والتعبير بالماضي (آتاني، جعلني) عن أمر مستقبل يفيد شدة تحقق الفعل وأنه أمر قد فُضِيَ سلفاً فلا بد من وقوعه.

وفي قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا {31} وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا {32} وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا {33}﴾، البركة: النماء والزيادة من كل

خير، وجملة (أيما كنت) تستغرق جميع الأمكنة أي بركته ليست قاصرة على محله الذي هو فيه، وفي قوله: (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا): أمر فيه معنى الإلزام والاستمرار كي تستغرق هاتان العبادتان العظيمتان كل حياته. واقتصار البرّ على الوالدة لإثبات أنه وُلد من غير أب.

والسلام جاء معرّفاً "باللام الدالة على الجنس مبالغة في تعلق السلام به حتى كأن جنس السلام بأجمعه عليه... ويجوز جعل اللام للعهد أي سلام إليه، وهو كناية عن تكريم الله عبده بالثناء عليه"²⁹، والتنويه بمكانته.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ {34}﴾: كلام معترض بين قوله: (قال إني عبد الله)، وقوله: (فإن الله ربي وربكم) غرضه تبكيث الأفاكين بالحجة الدامغة. ذلك: إشارة للبعيد دلالة على علو شأنه ورفعة منزلته.

ابن مريم: صفة لعيسى أو بدل منه، والمراد الردّ والتنفيذ على الوجه الأبلغ ما وصفه به أتباعه³⁰، حيث جعلوه ابناً لله وجعلوه إلهً، وجعلوه جزءاً من الإله.

(قول الحق) أي تلك الصفات التي ذكرت هي قول الحق والصدق الذي لا يجرى الكذب. (الذي فيه يمترون): يشكّون ويرتابون، وتقديم الجار والجرور (فيه) على متعلّقه (الفعل) يعطي صورة لهؤلاء الأفاكين وكأنهم في هاوية من الشك والريبة محيطة بهم من كل جانب فما يستطيعون الخروج منها.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ {35}﴾ تنزيه لله سبحانه عن اتّخاذ الولد، لأن اتّخاذ الولد شأن العاجز المحتاج، وهذه الصيغة "تفيد انتفاء الولد عنه بأبلغ وجه لأن لام الجحود تفيد مبالغة النفي"³¹.

(إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون): بيان لما قبلها لإبطال شبهة من نسبوا إلى الله الولد لما رأوا تكوينه على غير السبب المعتاد، بل أمره سبحانه وتعالى لا يتوقف على سبب.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ {36}﴾ معطوفة على قول عيسى عليه السلام: (إني عبد الله) تقريراً لعبودية الله وتأكيدها على وحدانيته في ربوبيته للكون، الأمر الذي يستلزم منهم عبادته (فاعبدوه). (هذا صراط مستقيم): تشبيه بليغ حيث شبه الاعتقاد الحق بطريق مستقيم موصل إلى الهدى³²، وبرّ الأمان كونه لا اعوجاج فيه.

5-6) موقف الناس من أمر مريم وابنها عليهما السلام:

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ {37}﴾ الفاء للترتيب وتفريع الأخبار بوقوع الاختلاف في أمر عيسى عليه السلام من قبل أتباعه، والأصل اتّفاقهم لوضوح أمره بالحجج القاطعة التي لا تدع مجالاً للشكّ.

(من بينهم): إشارة إلى أن الاختلاف لم يصدر عنهم بمقتضى علم واجتهاد وإنما كانوا هم المختلفين كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْتَصَارِيحُ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾³³، وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾³⁴ ويل: كلمة وعيد وعذاب.

مشهد: مصدر ميمي بمعنى الشهود أو المشاهدة أو اسم الزمان أو المكان والتقدير الويل للذين كفروا من الأحزاب "من شهودهم هول الحساب والجزاء يوم القيامة، أو من مكان الشهود فيه وهو الموقف أو من وقت الشهود أو شهادة ذلك اليوم عليهم... أو من مكان الشهادة أو وقتها"³⁵، فكأن العذاب عمّم وشملهم من كل جانب لشناعة جرمهم.

- إيهام طبيعة العذاب، والتنكير في (يوم) ووصفه بعظيم للتهويل والتفخيم من شدة الموقف، فتذهب نفس السامع كل مذهبٍ في تحيّل مقدار هذا العذاب وعظمه.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {38}﴾

(أسمع بهم وأبصر) من أبلغ صيغ التعجب، والمراد ما أشدّ سمعهم وأبصارهم يوم يأتوننا بعد أن كانوا في الدنيا صمًا وعميانا، وفيه كناية عن الوعيد والتهديد بأسوأ العذاب.

(لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين) استدراك على ما يفيد التقييد بالظرف (يوم يأتوننا) أي يوم القيامة، حتى لا يظنّ ظانّ أنهم في الدنيا بحال أفضل بل هم في تيه وشقاء، وإظهار (الظالمون) في مقام الإضمار غرضه التخلص إلى خصوص المشركين³⁶، لأن الظلم يطلق ويراد به معان كثيرة.

﴿وَأَنْذَرْنَاهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ {39}﴾

يوم الحسرة: يوم الندامة الشديدة، وإضافة اليوم إلى الحسرة وكأنه اختصّ بها إشارة إلى كثرة ما يكون فيه من تحسّر الظالمين³⁷، والجرمين على ما فرطوا في جنب الله لما (قضى الأمر) أي تمّ الحساب وبأنّ أهل الجنة من أهل النار.

(وهم في غفلة) متعلّق بجمله (في ضلال مبين) والمعنى أنه من شدة إعراضهم وصدّهم عن سبيل الله حتى كأن الغفلة أحاطت بهم من كل جانب فسدت عليهم كل منافذ التفكّر، والجمله أبلغ عن قولك (وهم غافلون).

(وهم لا يؤمنون): نفي مؤكّد شمل جميع الأزمنة الماضي والحاضر والمستقبل، مع ما في اختيار صيغة المضارع الدالة على معنى الاستمرار في الإعراض، بل والصدّ عن سبيل الله بشتى الوسائل والطرق إلى يوم القيامة، وفي الكلام دلالة على استحضر ذلك الاستمرار العجيب لطول غفلتهم مع أن دلائل الإيمان تأتيهم في كل حين.

تحسّن الإشارة على فوائد المقابلة بين قوله (أسمع بهم وأبصر) أي من شدة سمعهم وبصرهم يوم القيامة وبين قوله (وهم في غفلة) أي في ذهول وإعراض في حياتهم الدنيا، فتعمل على تأكيد المعنى وإبراز مدلوله، وتنشئ مقارنة بين نقيضين في صورة تحيلية تدعّ السامع يستهدي بنفسه سبيل الرشاد.

اقتضت حكمة الله ورحمته الواسعة التي تلقي بظلالها في أجواء السورة أن يكلف الرسول بإنذار القوم رغم كل هذا الإعراض والغفلة والصدود، لأن إقامة الحجة أصل في جميع الأديان، ومهمّة الرسل والدعاة من بعدهم حتى يتذكّر من يتذكّر ولعلمهم يهتدون.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ {40}﴾

أكّد سبحانه وتعالى أن ميراث الأرض ومن عليها من الخلائق يعود إليه بعد أن كان لهم شبه مشاركة في التصرف والملكية مجازا بمقتضى الخلافة، وتأكيد الجملة بمؤكدين لدفع توهم المشركين والدهريين الذين ينكرون حقيقة البعث، وإظهار ضمير العظمة مناسب لمقام الربوبية المتفرد بالملك والقضاء في ذلك اليوم العظيم.

خاتمة:

مما سبق يتأكد أن علماء العربية القدامى والأصوليون والمفسرون قد عرفوا علم التخاطب أو التداولية، من خلال ما نجده في مؤلفاتهم ودراساتهم من اصطلاحات وثيقة الصلة بمفاهيم التداولية عند المحدثين، كالعناية بالمخاطب ومقتضى الحال والمقام والسياق وغيرها، ولعل هذا يتجسد بوضوح عند المفسرين ذوي الاتجاه البياني في مدارستهم كتاب الله وتفسيره، وبحث وجوه إعجازه من جهة بلاغته وحسن أدائه، وجمال منطقته، وسحره وقوة تأثيره في النفوس، قصدا لهداية الخلق وإصلاح المجتمع.

أما جوانب إعجاز القرآن البياني التي عني بها المفسرون فتتمثل في كل آية، بل على مستوى العبارة والكلمة والحرف الواحد من حيث:

- 1 - دقة اختيار الألفاظ واتساع معانيها وقوة تأثيرها.
 - 2 - إكساب الكلمة درجة عالية من الحججة والبرهان.
 - 3 - المراعاة الدقيقة لمواطن التقسيم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتنكير، وغيرها من أساليب البلاغة، كل ذلك حسب ما يستدعيه المقام والسياق الواردة فيه.
 - 4 - الجمع بين إقناع العقل وإمتاع العاطفة.
 - 5 - التعبير بالصورة الفنية التي هي أداة القرآن المفضلة في الحديث والإبلاغ عن المعاني المقصودة.
 - 6 - مجيء جميع المسالك البلاغية الدقيقة في درجة عالية من البيان لا تنزل عنها، ولا يتخلف بعضها عن بعض.
- يدور المضمون العام لسورة مريم حول صفة الرحمة ومقام العبودية، من خلال ذكر نماذج من قصص الأنبياء والصالحين، والذين تمثلوا الكمال البشري في طاعة ربهم، حيث تحلّد السورة من خلال الأبيات المدروسة واحدة من أعجب القصص القرآني تمثلت في قصة مريم العذراء عليها السلام إذ وهبها الله سبحانه وتعالى الولد من غير أب خلافا للسنن الطبيعية، وجعله نبيا ورحمة للعالمين.
- أبداع المفسرون في تحليل الخطاب القرآني وتفتنوا في إظهار لمساته البيانية التي تفرّد بها، فقد شكّلت الصورة الفنية الأداة الأبرز في وصف مختلف المشاهد الواردة في الآيات المدروسة بدقة محكمة، وكأن المتلقي يراها رأي العين، رسمت معالمها طائفة من الصور البيانية كالتشبيهات والكنائيات والاستعارات مُزجت بألوان من البديع كالمقابلة والتكرار وغيرها من أساليب البيان فخرجت هذه الصورة في شكلها البديع تُشعّ وتنبض بالحياة، وتتجدّد حركيتها كلما تُليت آيات الذكر الحكيم، فتستجيب لها قلوب السامعين.

الهوامش:

¹سورة الدخان، الآية رقم: 46.

²ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد، تح: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، ج2، ص 312.

³بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث، القاهرة، د ط، 2006، ج2، ص: 182.

⁴سورة المسد، الآية رقم: 1.

- 5 سورة المسد، الآية رقم 3.
- 6 البخاري محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار السلام، الرياض، ط2، 1999، رقم الحديث: 4970، ص: 1269.
- 7 محمد رأفت سعيد، أسباب ورود الحديث تحليل وتأسيس، مجلة الأمة، قطر، العدد 31، جمادى الأولى، ص 81.
- 8 ينظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار المنار، القاهرة، ط2، 1947، ص23، 24.
- 9 فهد الرومي، بحوث في أصول التفسير ومناهجه، مكتبة التوبة، الرياض، ط1، 1419هـ، ص85.
- 10 ينظر: خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس، بيروت، ط3، 1986، ص 83.
- 11 ينظر: عبد الرحمن الميداني، معارج التفكير ودقائق التدبر، دار القلم، دمشق، ط1، 2002، مع 7، ص: 415، 416.
- 12 سورة آل عمران: الآية رقم 35، 36.
- 13 ينظر: عبد الرحمن الميداني، معارج التفكير ودقائق التدبر، مع 7، ص: 414، 415.
- 14 المحمد ألما سليمان، الصورة الفنية في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، 1995م، ص: 30.
- 15 ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب، تح: عبد الله الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، ط5، دت، مع6، ص: 4322، مادة(نبد).
- 16 الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، دار التونسية للنشر، تونس، د ط، 1984، ج16، ص81.
- 17 سورة النساء، الآية رقم 43.
- 18 سورة مريم، الآية رقم 8.
- 19 الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج16، ص82.
- 20 ينظر: شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، دت، ج18، ص79.
- 21 مجمع اللغة العربية بالقاهرة، معجم ألفاظ القرآن الكريم، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، القاهرة، ط2، 1989، ج1، ص1096.
- 22 ابن منظور، لسان العرب، مع1، ص707، مادة (جنى).
- 23 الحاكم محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحيحين، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار النشر العلمية، بيروت، ط1، 1990، ج3، رقم الحديث: 6364، ص: 407.
- 24 عبد الرحمن الميداني، معارج التفكير ودقائق التدبر، مع7، ص452.
- 25 الجوهرى، الصحاح في اللغة، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1990م، مع6، ص 306، مادة (فسد).
- 26 الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج16، ص87.
- 27 الزمخشري أبو القاسم، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط3، 2009، ص636.
- 28 سورة التوبة، الآية رقم 30.
- 29 الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج16، ص: 100، 101.
- 30 ينظر: شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج16، ص: 91.
- 31 ينظر: الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج16، ص103.
- 32 ينظر: المرجع نفسه، ج16، ص105.
- 33 سورة التوبة، الآية رقم 30.
- 34 سورة المائدة، الآية رقم 83.
- 35 الزمخشري أبو القاسم، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ص637.
- 36 ينظر: الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج16، ص108.
- 37 ينظر: المرجع نفسه، ج16، ص109.